بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الله اسمه « الحق » ، وهو « يقول الحق » ، و « يحق الحق » ، و « لا يستحى من الحق » ، و « يضرب الباطل بالحق » ... ولكن الناس أكثرهم للحق كارهون .

ومن الناس من يعبد الله على حرف ، ومنهم من يعبده بالوراثة ، ومنهم من يعرفه بقلبه ، ومنهم من يؤمن به « بعد تفكير طويل » .

والعقاد (رحمه الله) كان يؤمن بالله « وراثة » ، و « بقلبه » ، و « بعد تفكير طويل » .

وفئة قليلة من البشر تلك التى تحب أن تؤمن بالله « على بصيرة » ...

تتفقَّه فى كلامه سبحانه ، حتى إذا أدركت أنه الحق اطمأنت إليه قلوبها ، فأحبته ، حتى إذا ما ملك عليها مشاعرها انصاعت له جوارحها ، فأصبح خلقها « القرآن » ... ما ضرها أن تتعبد بتلاوة حروفه ، وإن كانت « الم » مما خفى معناه ... أولئك هم أولوا الألباب .

و « الم » لم تأت عبثا ، إنها آية من آيات القرآن ، فعلاقتها به علاقة الجزء بالكل . فمن آمن به « على بصيرة » آمن بها بالضرورة ، وإن لم يفهم معناها ، فذلك هو جوهر الإيمان بالغيب ، وعلى بصيرة .

و « القراءات القرآنية » هى الطرق المختلفة لنطق ألفاظ القرآن الموحى بها فى إطار رسم تلك الألفاظ كما وردت فى المصحف العثمانى الإمام المجمع عليه والخالى من النقط والشكل والضبط ، وبلهجات عربية متنوعة فصيحة ، قرأ بها النبى ﷺ بعض الألفاظ ، وأقر على صحة القراءة بها فى البعض الآخر الصحابة

من باب التيسير ، رخصة من عند الله بموجب حديث الأحرف السبعة المتواتر ، وورد بعضها متواتراً ، وورد بعضها صحيحًا مشهوراً مستفيضًا محفوفًا بالقرائن متلقى بالقبول من العامة والخاصة ، فحصل بالمتواتر العلم اليقينى وحصل بالمشهور الاطمئنان على صدقها وصحة مغيبها ، من غير تعيين ، فوجب الإيمان بها جميعًا على بصيرة – هى اليقين والاطمئنان – حتى صار ذلك بديهة من البديهيات يطلق عليها « المعلوم من الدين بالضرورة » ... يكفر من يجحدها .

وكما اقتضت حكمة الله أن يرد القرآن بالمحكم والمتشابه من أمثال(الم) ، فقد شاءت حكمته سبحانه أن ترد « القراءات » – وهى طريقة نطق ألفاظ القرآن – بالمحكم والمتشابه أيضًا . والمتشابه فى كليهما « القرآن القراءات » قطعى الثبوت وظنى الدلالة .

وإذا كان « المتشابه فى القرآن » قد شكل حافزاً أبديًّا وتحديًا للعقل المسلم لمحاولة الفهم والتفسير، فإن « المتشابه من القراءات » لم تقتصر على ذلك فقط ، بل شكلت هى الأخرى حافزاً لا ينضب معينه لتذوق اللغة العربية التى نزل بها القرآن .

ولقد وقف هذان الحافزان وراء تشكيل العقل العربى المسلم ثم تطويره ليبدع للإنسانية هذه الحضارة العظيمة .

ولو جاء القرآن محكمًا كله،لتوقف العقل المسلم عن التفكير، ولتحول من عقل متبع – على بصيرة – إلى عقل مقلد مردد أعمى . فأى حضارة تلك !! .

ولو جاءت القراءات قراءة واحدة محكمة ، لماتت اللغة العربية جموداً . وللحق بها بعد حين التفكير العربى المسلم أيضًا ، ذلك أن الإنسان يفكر بلغته ، فالتفكير واللغة وجهان لعملة واحدة .

يقول تعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾[1] ... ينهانا بذلك عن تلقى القرآن بمجرد الحفظ والترديد . ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾[2] فى المصحف

(١) القيامة : ١٦ .
(٢) القيامة : ١٧ .

العثمانى الإمام ، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ بالقراءات السبع المتواترة والعشر المشهورة على الصحيح بل الأصح ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (١) يأمرنا بالاتباع على حين ينهانا عن مجرد الحفظ والترديد ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٢) بالتفسير والفهم من ناحية العقل لمعنى ألفاظه ، وبالإعجاز البلاغى من ناحية الفن والتذوق لقراءاته ... حكمة بالغة ... وليذكَّر أولوا الألباب .

إن مثل القراءات والقرآن الكريم كمثل التنويعات على لحن عبقرى خالد ، منها ما تلقى بالقبول ، فشاع وذاع ، وأقبل عليها أهل الأمصار . ومنها ما لم يحظ بالقبول ، فلقبه الناس « بالشاذ » ، وهجروه وانصرفوا عنه إلى غيره .

ولم يكن « الهوى » هو المقياس الذى شاع عند الناس لقبول قراءة والإعراض عن أخرى ، ولكن جاء مقياسهم « توليفة عبقرية » من الأركان والشروط عبرت بصدق عن « المنهج الإسلامى الخالص » فى استيعاب الواقع للمثال ، والتفاعل معه بانسجام وتناغم وتكامل ، كان جديراً بأن يعلن للإنسانية عن ميلاد حضارة جديدة ، جديرة بأن تغزو عقول وقلوب بنى الإنسان ، أينما وسعه المكان ، أو امتد به الزمان .

واللحن الأساسى فى معزوفة القراءات كان رسم الكلمات فى المصحف العثمانى الإمام ، خالياً من الضبط والنقط والإعجام .

أما التنويعات على هذا اللحن الأساسى ، فكانت القراءات ، فما وافق منها رسم المصحف ، كان قراءات قرآنية ، وإلا فهو شاذ . وما وافق العربية الفصيحة السائغة كان قراءات قرآنية ، وما أتى بلهجة هابطة فهو شاذ ، وما جاء منها برواية صحيحة ، فهو قراءة قرآنية ، وما لم يأت بالرواية ، فهو ليس بقراءة ولا بقرآن ... فجاءت عبقرية القرآن شاهداً على عبقرية القراءات والقرَّاء معًا .

* * *

---

(١) القيامة : ١٨ .

(٢) القيامة : ١٩ .